وبما أن المرأة أصبحت محوراً أساسيا في حياة المجتمع الحجازي – نجد الشعر يتخذها محوراً ، بل ركيزة أساسية ينطلق منها إلى بناء تشكيلات جمالية ، تتخذها رمزاً مقدَّساً يستحقُّ الحب الخاضع والعاطفة الذليلة . وربما كان هذا الانبعاثُ الجديد لصورة المرأة ممثِّلاً لبقايا اعتقادات قديمة موغلة في القدم ، مثلت المرأة فيها الآلهة المعبودة عند الجاهليين . فكثيرٌ ينتقد عمر بن أبي ربيعة في قوله :

قالَتْ لَها أختُها تُعاتِبُهـا : لا تُفْسِدِنَّ الطَّوافَ في عُمَرِ
قومي تَصَدَّيْ لَهُ لِيُبْصِرَنـا ثُمَّ اغْمِزيهِ يا أخْتُ في خَفَرِ
قالَتْ لَها : قَدْ غَمزْتُهُ فَأبى ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَشْتَدُّ في أثَري

وقال له : لو قلتَ هذا في هِرَّة أهلك لأسأتَ ؛ إنك لم تنسُب بها وإنما نسبْتَ بنفسك ، أ هكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بالخَفَر ، وأنها مطلوبة ممتنعة ، هلا قلتَ كما قال هذا ، وضرب بيده على كتف الأحوص :

أدورُ وَلَوْلا أنْ أرى أمَّ جَعْفَرٍ بِأبياتِكُمْ ما دُرْتُ حَيْثُ أدورُ
وَما كُنْتُ زَوّاراً وَلَكِنَّ ذا الهَوى إذا لَمْ يَزُرْ لا بُدَّ أنْ سَيَزورُ
لَقَدْ مَنَعَتْ مَعْروفَها أمُّ جَعْفَرٍ وَإنّي إلى مَعْروفِها لَفَقيرُ

فامتلأ الأحوص سروراً ، فقال له : يا أحوص ، خبِّرني عن قولك :

فَإنْ تَصِلي أصِلْكِ ، وَإنْ تَعودي لِهَجْرٍ بَعْدَ وَصْلِكِ لا أبالي

أ ما ، والله ، لو كنت من فحول الشعراء لباليتَ ، هلا قلتَ مثل ما قال هذا ، وضرب بيده على جَنْب نُصيب :